من يصنع الشرق الأوسط الجديد؟!

مشهد أميركي لشرق أوسط "جديد".

بقلم: هاشم حمدان

تشير التقارير الإسرائيلية إلى أن إعلان الحرب على حزب الله كان مسألة وقت، على اعتبار أنها مسألة ليست ملتهبة، وبالتالي كان يمكن تأجيلها إلى أن يحين التوقيت المريح لإسرائيل والظروف المناسبة محلياً وإقليمياً ودولياً، ولعل خير تأكيد على ذلك هو الاعتراف الإسرائيلي بوجود المخططات العسكرية في الأدراج، فضلاً عن إجراء المناورات العسكرية على الحدود الشمالية قبل بدء الحرب بشهر ونصف، باعتراف رئيس هيئة أركان الجيش، دان حالوتس، نفسه، هذا أولاً. وثانياً رهانها على أن تدحرج الأوضاع في لبنان، مع عدم إغفال الدور الأميركي والإسرائيلي العلني والخفي في دحرجة الأوضاع، باتجاه خلق شروط مريحة قد توفر في ظاهرها الدبلوماسي ما تصبو إليه الولايات المتحدة وإسرائيل، من دون الحاجة إلى دق طبول الحرب والخوض في مغامرة قد تخلط الأوراق في ظروف لبنان الدقيقة والحساسة، من جهة، ومن جهة أخرى لتجنب "مقارعة" الرأي العام العالمي بشقيه الشعبي والرسمي.

ومما لا شك فيه أن حزب الله يدخل في دائرة الاستهداف الإسرائيلية الأميركية، وذلك إلى جانب المقاومة الفلسطينية، وإلى جانب الأنظمة العربية التي تكافح الهيمنة الأميركية والإسرائيلية في الشرق الأوسط، والإشارة هنا إلى سورية وإيران، على اعتبار أنهما تقفان إلى جانب المقاومة اللبنانية والفلسطينية في وجه المشاريع الأميركية التي تسعى إلى تفتيت الشعوب العربية إلى طوائف وفرق، وتحويلها إلى دويلات صغيرة لا حول لها ولا قوة، مقابل تكريس التفوق العسكري الإسرائيلي في المنطقة، لتسهيل نهب خيرات المنطقة وربط اقتصادها بعجلة الاقتصاد الأميركي والإسرائيلي، كل ذلك تحت شعار نشر الديمقراطية، وهو ما يسمى "الشرق الأوسط الجديد"!

هذا المشروع؛ الشرق الأوسط الجديد، بدأ يتعثر مع تصاعد ضربات المقاومة العراقية، ومع تعثر كافة المخططات الأميركية في العراق، الدولة التي كان يفترض أنها المقدمة لمواصلة التحرك لفرض "النظام الأميركي" في المنطقة، فضلاً عن تبيان كذب التقارير الأميركية بشأن الأسلحة العراقية، وتهاوي شعبية الرئيس الأميركي جورج بوش في الولايات المتحدة إلى حضيض لم يصل إليه أي رئيس آخر في تاريخها.

وفي السياق ذاته، لم تفلح الجهود الأوروبية والأميركية والإسرائيلية في تحريك الخيوط في لبنان باتجاه تطبيق القرار ١٥٥٩، وبخاصة الشق المتمثل بنزع أسلحة المقاومة وفرض سيطرة الجيش اللبناني على الجنوب؛ المنطقة الحدودية مع إسرائيل، على اعتبار أن ذلك يضمن أمن الحدود الشمالية لإسرائيل، وفي الوقت نفسه يخرج لبنان من دائرة الدول العربية الممانعة، الأمر الذي يخدم أهداف المشروع الأميركي الكبير في المنطقة، على الرغم من كل الضغوط التي مورست، ولا تزال، على المستوى الدولي، وعلى الرغم من كل المؤامرات التي تحاك في الخفاء.

موضوعياً، كانت هناك أسباب تعتبر كافية بالنسبة للولايات المتحدة أو لإسرائيل، لمواصلة التفكير في تنفيذ المخططات المبيتة.

(أ. ف.ب)

يضاف إلى ذلك كله، عوامل إسرائيلية عدة، يمكن اعتبارها ذاتية لكونها جعلت إسرائيل هي المنفذ وليست الولايات المتحدة، ساهمت في حسم مسألة توقيت الهجوم. ولعل أولها أن عملية "الوعد الصادق" جاءت بعد فترة قصيرة من عملية "الوهم المتبدد"، وكلتا العمليتين النوعيتين في تاريخ الصراع مع إسرائيل تميزتا بكونهما قد تم التخطيط لهما بشكل متقن وبارع، وعملت على تنفيذهما عناصر على مستوى عالٍ من التدريب، ونفذتا ضد أهداف عسكرية إسرائيلية، ونجم عنهما مقتل عدد مّن الجنود الإسرائيليين ووقوع ثلاثة جنود في أسر المقاومة الفلسطينية واللبنانية وتدمير عدد من الآليات العسكرية الإسرائيلية، وانسحاب المنفذين بسلام.

أما العامل الثاني، فهو تصاعد الأصوات في إسرائيل التي تنوح وتولول على ضياع ما يسمى "هيبة الردع الإسرائيلي"، بعد العمليتين النوعيتين اللتين نالتا من البقرة المقدسة، وأذلتا "هيبة الجيش الذي لا يقهر"، وجاءتا في ظل الفشل العسكري الإسرائيلي في كسر شوكة المقاومة الفلسطينية، وبخاصة وقف إطلاق صواريخ القسّام، الأمر الذي نسف كل مخططات إسرائيل لتجنب المفاوضات مع الفلسطينيين، ومجابهة الرفض الفلسطيني المشروع للإملاءات الإسرائيلية في المحافل الدولية، عن طريق فرض حلول أحادية الجانب وصولاً إلى فرض حدود إسرائيل الدائمة، بدءاً بفك الارتباط من قطاع غزة، مروراً بجدار الفصل العنصري، وانتهاءً بخطة التجميع، وذلك بسبب تواصل نشاط المقاومة الفلسطينية، والخوف من انتقال تكنولوجيا القسّام إلى الضفة الغربية، وهو تطورٍ من شأنه أن ينسف كل الجهود "الأمنية" الإسرائيلية، والسياسية لاحقاً.

أضف إلى ذلك، أن طبيعة دولة العسكر تجعل أمثال رئيس الحكومة الإسرائيلية، إيهود أولمرت، ووزير حربه، عمير بيرتس، اللذين يفتقدان إلى الماضي العسكري، يندفعان، في ظل الوضع المعطى، إلى إثبات أنهما لا يقلان عسكرتارياً عن أفظع جنرالات الجيش الإسرائيلي، وأن بإمكانهما تحريك الدبابات والآليات العسكرية وشن غارات جوية، وصولاً إلى إعلان حرب بسرعة قياسية لم يسبق لها مثيل في تاريخ دولة العسكر.

كل هذه الأسباب مجتمعة، لم تكن كافية لإعلان الحرب، لولا توافر عوامل ذاتية عربية، ممثلة بأنظمة عربية ترى في وجود ممانعة عربية ومقاومة عربية أسباباً تزيد من عزلتها عن شعوبها، فلجأت إلى إدانة عملية المقاومة ووصفها بـ "المغامرة غير المحسوبة"، وبالتالي جعلت نفسها في الخندق الآخر إلى جانب العدوان، وبالنتيجة فإن موقف هذه الأنظمة ساهم في تحشيد تأييد دولي أكبر لإسرائيل. ولعل تصريحات أولمرت وبيرتس تؤكدان مدى أهمية هذا "الدور" العربي، عندما صرحا في أكثر من مناسبة أن "العملية العسكرية" الإسرائيلية تلقى تأييداً دولياً، وبخاصة عربياً، وأن وقوف أنظمة عربية إلى جانبها يدفعها إلى مواصلة عمليتها العسكرية– العدوان!

بقي أن نشير إلى التقاطع بين الإستراتيجية الأميركية من جهة، والإسرائيلية من جهة أخرى، على صعيد توسيع الحرب الحالية لتشمل سورية أساساً. ووفقاً لتقارير إسرائيلية، فإن مسؤولين في الإدارة الأميركية يفضلون لو تقوم إسرائيل بتوسيع جبهة القتال وشن هجوم على سورية، بوصفها أحد معاقل مقاومة المشاريع الأميركية في المنطقة، وربما المعقل الأخير. وفي كل الحالات، لم "تغامر" إسرائيل بفتح جبهة ثالثة (بعد قطاع غزة ولبنان) لأسباب عديدة يمكن اختصارها بكونها جبهة ثالثة أولاً، ولأنها ستكون جبهة قتال مريرة وعنيفة ثانياً، وفقدان التأييد الدولي والعربي ثالثاً، وربما لأن إسرائيل تدرك أنه في أحسن الحالات، إسرائيلياً، ستضع عراقاً آخر على حدودها الشمالية يتعالى وهج نيرانه ليطال إسرائيل نفسها رابعاً، والإخفاق العسكري في مواجهة مقاتلي حزب الله خامساً، وأسباب أخرى لا مجال لحصرها هنا.

وليس خافياً على أحد أن عجز الآلة العسكرية الإسرائيلية الهائلة عن حماية البلدات الشمالية في إسرائيل، وتواصل القصف الصاروخي الذي طال حيفا والعفولة، ناهيك عن الخسائر الاقتصادية الهائلة، علاوة على عدد الإصابات والقتلى، واضطرار أكثر من مليون إسرائيلي إلى الهروب جنوباً والبقاء في الملاجئ مدة طويلة، مقابل صمود المقاومة اللبنانية، بل وقدرتها، وبأعداد قليلة جداً، على التصدي للآلاف المؤلفة من القوات البرية المدرعة والمسلحة بأسلحة نوعية، وإيقاع خسائر في صفوفها، بدأ ينسف الأحلام الإسرائيلية، وتجلت بشكل واضح في خفض سقف أهداف الحرب تدريجياً، من القضاء على حزب الله وتدمير ترسانته العسكرية، إلى الاعتراف بصعوبة تحقيق هذا الهدف، ثم الاعتراف باستحالة تنفيذه، وأخيراً الاكتفاء بنشر قوات في جنوب لبنان وإبعاد مواقع حزب الله عن الحدود.

زد على ذلك، فإن صمود المقاومة أوقع الحكومة الإسرائيلية في أزمة جدية، فهي تجد نفسها في حالة صراع مع الزمن، قبل إجبارها على وقف إطلاق النار، وذلك من أجل تحقيق أي إنجاز يمكن أن يجري تعظيمه ليزف للشارع الإسرائيلي كهدف تم تحقيقه.

وليس أدل على عمق الأزمة في الشارع الإسرائيلي من الأصوات التي بدأت ترتفع، والتي "تنذر" بالمحاسبة الشديدة بشأن قرار الحرب وسرعة اتخاذ القرار والاستعدادات للحرب والإخفاقات الاستخبارية والعسكرية، والفشل في تحقيق أهداف الحرب، والعجز عن حماية الجبهة الداخلية ... ووصل عمق الأزمة إلى درجة دفعت البروفيسور باروخ كيمرلينغ، وهو محاضر في علم الاجتماع في الجامعة العبرية، إلى الحديث عن زلزال سياسي عنيف سوف يهز الخارطة السياسية في إسرائيل، ويدفع الأحزاب السياسية إلى الانهيار، ويتنبأ بتلاشي اصطفافات يمين ويسار ومركز نظراً لغياب الفوارق بينها جميعاً.

في هذه الأثناء، تواصل المقاومة اللبنانية الوقوف سداً منيعاً أمام الشرق الأوسط "الأميركي الإسرائيلي" الجديد، وتساهم في وضع الخطوط العريضة لشرق أوسط جديد مغاير تماماً.

تدمير شامل في بيروت لم ينجح في كسر المقاومة.

(أ. ف.ب)